توطئة

وضعت هذا الكتاب استجابة لمشكلتين أراهما واسعتي الانتشار في التعليم الجامعي هذه الأيام. تتمثل الأولى في كون الغالبية العظمى من مدرسي الجامعات لا يملكون أهدافاً في التعليم تتخطى حدود ذلك النوع من التعلم المعروف بطريقة «إفهم ثم تذكر». قلة فقط من هؤلاء المدرسين تجاوزوا هذا النوع وأدخلوا جوانب معينة من التعلم التطبيقي ـ مثل حل المشكلات وإعمال الفكر وصنع القرار. ولكن، حتى هؤلاء القلة الذين يقدمون نسخة لائقة وحسنة من التعليم التطبيقي قد عرفوا بأنهم استثناء للقاعدة. ونتيجة لذلك بات الالتحاق بعدد كبير من المقررات الدراسة يعطي الانطباع بأن المدرسين يقومون بعملية إغراق بالمعلومات. يجمعون ويرتبون كل ما لديهم من معلومات وأفكار حول موضوع معين ثم يلقون بركام هذه المعرفة على رؤوس مستمعيهم (آملين بأنها ستدخل إلى تلكم الرؤوس). وعندما ينتهي تدريس المقررات يشعر المرء بإحساس مروع بأن الطلبة هم أيضاً على وشك المشاركة في عملية إغراق بالمعلومات من صنعهم.

وأما المشكلة الثانية فهي أن معظم المدرسين يجدون صعوبة في معرفة ما هي الأنشطة التعليمية التي يمكن استخدامها إضافة للطريقتين التقليديتين المتمثلتين في إلقاء المحاضرات وقيادة المناقشات. هذا، وقد أجريت دراسات اشتملت على قيام شخص معين بدخول غرفة صف في الجامعة وقياس ما يفعله المدرسون على أرض الواقع. وتبين أن عدد المرات التي يسأل المدرس فيها سؤالاً في حصة درسية مدتها ساعة واحدة ضئيل بشكل لافت. أما المناقشات المعمقة والمعززة التي تتضمن ردوداً من طلبة على زملائهم الآخرين وعلى المدرسين فهي أمر شديد الندرة. وبالرغم من أن الحديث والرؤية بخصوص التعلم النشط قد غدت حركة لها أهميتها في أمريكا الشمالية إلا أن الممارسة المهنية لهذا التعلم لا تزال متخلفة كثيراً عن مواكبتها.

بيد أن معاناة المدرسين من هاتين المشكلتين ليست خطأهم. لقد وجدوا أنفسهم يتلقون برامج في المرحلة الجامعية الأولى لا تعترف عموماً بالتحدي وبتعقيدات التعليم الجيد. كان وقت واهتمام طلبة الدراسات العليا موجهين حصرياً تقريباً لتحديات وتعقيدات القيام ببحوث جيدة. وبعدئذ، وحين يتسلم الطلبة الخريجون من حملة شهادة الدكتوراه مواقعهم متفرغين للعمل أساتذة في الجامعات يطلب إليهم أن «يعلّموا فقط» إذا انضموا إلى مؤسسة تعليمية أو «يشغلوا أنفسهم بالبحوث والنشر» إذا كانت للمؤسسة التي انضموا إليها تطلعات بحثية. وقلما تقدم إليهم الوسائل التي تزيدهم علماً ليدرسوا بشكل أفضل. وأما نظام المكافآت فيحمل لهم رسالة واضحة، وفي المؤسسات الكبرى على وجه الخصوص، مفادها: «أولويتكم الأولى نشر بعض البحوث.

الرسالة المحورية

تدور فكرة هذا الكتاب بمجملها حول تقديم أفكار من شأنها تحسين الطريقة التي بها يمارس التعليم في الجامعات. ولكي يحدث هذا التحسين يحتاج القراء الذين يعملون في مهنة التعليم لأن يروا، أولاً، أن ثمة أساليب في التعليم تختلف، بل وتختلف كثيراً، عن الأساليب التي يتبعونها حالياً. وثانياً، ينبغي إقناعهم بأن هذه الأساليب الجديدة، والمختلفة، سوف تفضي إلى حصول أشياء رائعة لهم ولطلبتهم سواء بسواء. وثالثاً، سوف يحتاجون للإرشاد والتوجيه في معرفة كيف يستخدمون هذه الأساليب الجديدة والمختلفة في عملهم التعليمي.

وأخيراً، ينبغي أن تدرك مؤسساتهم وكذلك المنظمات الأخرى الهامة في قطاع التعليم العالي جدارة وقيمة هذا المجهود وأن تقدم المستوى اللائق من التشجيع والدعم. ولي أمل كبير بأن هذا الكتاب سيحقق النجاح المنشود في تناول هذه الحاجات الأربع وبالتالي يقدم العون للمدرسين في إيجاد السبل الجديدة والأفضل للمشاركة في واحدة من أعظم المهن أهمية في العالم وأكثرها بهجة ومرضاة للنفس.

التعلم المفيد

تتمثل الفكرة الأولى في وضع تصنيف جديد للتعلم المفيد يقدم للمدرسين مجموعة من المصطلحات يستعينون بها في صياغة أهداف التعلم لمقرراتهم الدراسية. يذهب هذا التصنيف الجديد إلى ما هو أكثر من طريقة الفهم والتذكر، وحتى إلى ما هو أبعد من التعلم التطبيقي. وللمدرسين والمؤسسات التعليمية التي تريد تقديم تعليم يرتكز على التعلم فإن هذا التصنيف الجديد يعد خارطة طريق ترسم تنوعاً واسعاً من التعلم المفيد.

التصميم المتكامل للمقرر

يتضمن هذا الكتاب أيضاً نموذجاً للتصميم المتكامل للمقرر. فهو نموذج يتخذ أساساً له أفكاراً عديدة ويجسدها وهي موجودة حالياً في الكثير من المؤلفات الخاصة بوضع تصميم لتقديم التعليم والتدريس الجيد. لكنني أقدم هذه الأفكار بطريقة جديدة تسهّل على المدرسين ومصممي المواد التعليمية رؤية ما يستطيعون فعله حقاً ـ ويطلبون من طلبتهم ذلك ـ في سبيل رفع سوية أمور عديدة من مثل التعلم المفيد والتعلم النشط والتقويم التعليمي. ومن خلال التأكيد على الطبيعة المتكاملة لتصميم التعليم، يبين هذا النموذج أيضاً أن القوة الحقيقية لهذه الأفكار تكمن في ارتباطها ببعضها على النحو الصحيح. فمثلاً، تصبح عملية جعل الطلبة يشاركون في عمل تجريبي أكثر قوة عندما يرتبط هذا العمل بحوار تأملي، كما أن التقويم الصحيح يصبح ذا مغزى أفضل عندما يرتبط بفرص تتاح للطلبة للمشاركة في التقويم الذاتي. وعندما يرتبط مفهوم التعلم المفيد مع مفهوم التصميم المتكامل للمقرر الدراسي يصبح لدى المدرسين أدوات أكثر قوة لتحليل طريقتهم التدريسية وإعادة تشكيلها. فهذه الأدوات سوف تتيح لهم أن يكونوا لأنفسهم فهماً أفضل لماهية الشيء الذي يفعلونه حالياً ويجدونه جديراً بالعناء، وما السبب الذي يجعله جديراً بالعناء، وما الأشياء الأخرى التي يستطيعون فعلها ليجعلوا تعليمهم أكثر فاعلية وأثراً.

دعم مؤسسي أفضل

إن هاتين الفكرتين الأوليتين موجهتان للمدرسين، لكن معرفة الأفكار الجديدة للتعليم وتطبيقها عملياً يقتضي الوقت والجهد والدعم. وهذا يعني أن أساتذة الجامعات بحاجة لدعم قوي لتغيير أسلوبهم في التعليم وهو دعم أقوى كثيراً مما يحظون به حالياً. وفي هذا السياق يقدم الفصل السادس بعض التوصيات من أجل دعم مؤسسي أفضل مما هو عليه الآن، ويرتبط بست حاجات للهيئة التدريسية. ومعظم هذا الدعم المطلوب يجب أن يأتي من المؤسسة التي ينتمي الأساتذة إليها. لكن ثمة عدداً من المؤسسات الأخرى التي لها تأثير هام أيضاً في طريقة عمل الأساتذة، لذلك فإن دور هذه المؤسسات في دعم التعليم الأفضل سوف يكون أيضاً موضع دراستنا في هذا الكتاب.

خطة الكتاب

الخطة العامة لهذا الكتاب هي كما يلي. أولاً سوف أقدم وصفاً لما أراه يحدث في مجال التعليم العالي حالياً. فهذه الحالة، كما أراها، بحاجة لتغيير جوهري في الطريقة التي بها نعلّم الطلبة لكنها في الوقت نفسه تقدم لنا عدداً لا بأس به من الأفكار الجديدة حول كيفية إحداث هذا التغيير. ثم أعرض لاثنتين من أفكار الكتاب الرئيسة. الأولى هي تصنيف علمي للتعلم المفيد يزودنا بلغة جديدة لوضع أهداف التعلم (الفصل الثاني). بعد ذلك نعرض لأفكار رئيسة للتصميم المتكامل للمقرر الدراسي بهدف إعطاء المدرسين أدوات جديدة لتحقيق مجموعة من أهداف التعلم تحمل المزيد من التحدي (وهذا هو موضوع الفصلين الثالث والرابع).

وقد يشعر المدرسون بالحاجة لأفكار ومقترحات جديدة حول طريقة إحداث التغيير في الطريقة التي يتبعونها حالياً في التدريس، وهو ما سوف تجدونه في الفصل الخامس. وبافتراض أن الأساتذة على استعداد لإحداث هذا النوع من التغيير الفردي والشخصي إلا أنهم سوف يحتاجون إلى دعم مؤسسي أكثر قوة من مختلف المؤسسات

التي لها نفوذ وتأثير في طريقة عملهم (وهو موضوع الفصل السادس). وأخيراً، وفي الفصل السابع أتحدث عن حلمي لكيف سيكون التعليم العالي إذا عملت الجماعات المنخرطة في هذا العمل كافة في سبيل دعم ومساندة تعلم أكثر فائدة من خلال عملية تغيير في التعليم العالي تنتظرنا عند مطلع القرن الواحد والعشرين.

موقع الكتروني للتعلم المفيد

إلى جانب ذلك أدعو القراء لزيارة موقع الكتروني خاص للتعلم المفيد أنشيء حديثاً بهدف متابعة الحوار حول هذا الموضوع. إن الغاية الرئيسة لهذا الموقع إتاحة الفرصة للمدرسين ليطرحوا ما يشاؤون من أسئلة وليتحدثوا عن نجاحاتهم، وكذلك لأرشفة الموارد والأفكار المهمة بما يخدم عملية التعلم المفيد في الأطر التربوية كافة.

سوف تشهد هيكلية هذا الموقع تطوراً دون شك مع تقدم الزمن، إلا أنها في إطارها الحالي تحتوي على لائحة للمناقشة ومواد تساعد المدرسين في عملهم التصميمي، كما تتضمن وصفاً للمقررات الدراسية التي تشجع التعليم المفيد.

عنوان الموقع هو: http://www.significantlearning.org

شكر وتقدير

ثمة قول مأثور مفاده: «إن تأليف كتاب يحتاج لأهل قرية كاملة». وهذا ما ينطبق حقاً على كتابي هذا. والقسم الأهم من أهل قريتي هذه هم أشخاص آخرون كتبوا وألفوا كتباً عن التعليم الجامعي. والأفكار الرئيسة التي أقدمها بين دفتي هذا الكتاب تعتمد على عدد من روائع ما كتب عن التعليم العالي وتجسد عدداً من الأفكار الرائعة المختارة من العديد من المطبوعات المعاصرة. وتكفي نظرة سريعة على متن الكتاب قائمة المراجع ولائحة مطالعات مقترحة في الملحق (ب) لتعطي فكرة عن مدى ما أدين به في معرفتي لأعمال الآخرين.

وإن كان ذلك إسهاماً من الكثيرين إلا أن ثمة آخرين كانت إسهاماتهم على نحو مباشر. فعلى الرغم من أن الأسئلة والأفكار التي أقدمها في هذا الكتاب كان تعتمل في ذهني منذ سنوات عدة إلا أن العديد من الأفكار قد تبلورت عام 1996 عندما كنت أدرّس مقرراً بعنوان «استراتيجيات تدريسية في التعليم العالي وتعليم الكبار» في جامعة أوكلاهوما. فكانت ردود الفعل التي تلقيتها من طلبة الدراسات العليا لهذا المقرر حافزاً لي للقيام برحلة بالغة التركيز في البحث والقراءة والإبداع والمناقشة والاختبار وإعادة النظر في تلك الأفكار.

وفي رحلتي هذه كان لعدد من الأشخاص أثر عظيم في إغناء محتواها. ستيف بول Steve Paul، أستاذ فذ في الموسيقا كان يدرّس حينذاك في جامعة أوكلاهوما ثم انتقل إلى جامعة أريزونا، كان يحثني كثيراً من خلال سلسلة من الأحاديث استمرت على مدى عام ونصف، وقد أفرزت المخطط الأولي للأفكار الرئيسة التي يعرض لها هذا الكتاب. وبيل ماك كيشيBill McKeachie ، ذلك الشخص الذي أكثر من أي شخص آخر أعطى العمل العلمي في التعليم حقه المشروع وقدم لي التشجيع الهام في المراحل الأولى من رحلتي هذه، سيما في الأوقات التي كنت فيها غير واثق من جدارة هذه الأفكار ومن قدرتي على وضعها في كتاب. وتوم أنجيلو Tom Angelo الذي تكرم واقتطع وقتاً لا بأس به من برنامج عمله المزدحم ليقرأ المسودة الأولى، وأشار إلى بعض التغييرات ذات الأهمية.

وخلال السنوات الأخيرة من عملي في هذا الكتاب استمع الأساتذة في المؤسسة التي أعمل فيها وفي مؤسسات أخرى لهذه الآراء وذلك من خلال حوارات غير رسمية وورشات عمل رسمية. ورغم أنه عمل ليست له نهاية إلا أن ردود فعلهم قد أخذت بيدي على درب طويل وجعلتني في النهاية أفهم ما يجب أن يقال لكي تكون هذه الأفكار ذات مغزى مفيد لدى من يهتمون بالتعليم ويريدون أن يرتقوا بمستوى أساليبهم التعليمية. وكان من هؤلاء أستاذ أخصه بالشكر العميق، هو الأستاذ جون فيرنو John Furneaux، أستاذ الفيزياء في جامعة أوكلاهوما، الذي لم يستمع لأفكاري هذه فحسب، بل قدم لي أيضاً مقرره الدراسي ليكون بمثابة معمل أختبر فيه قيمة وجدارة الأفكار. وإنني أعرض لنتائج هذه التجربة في الفصل الخامس.

ولا يسعني إلا أن أعرب عن عظيم امتناني لشخصين كان لهما أكبر الأثر في تعليمي في مراحل مختلفة من حياتي الأولى، وهما ثوماس لودلم Thomas Ludlum وويليام باتيسون William Pattison. لقد كانا أنموذجاً للتميز الفكري والإنساني ظل مرشداً لي طوال حياتي الشخصية والمهنية على السواء.

وأتوجه بالشكر أيضاً إلى لين سورنسون Lynn Sorenson التي عملت سابقاً في جامعة أوكلاه`وما وهي الآن المدير المشارك لـ: Faculty Center at Brigham Young University فقد كرست جزءاً من وقتها الثمين وأفادتني بخبرتها من حيث اقتراح بعض التغييرات التي جعلت هذا الكتاب أكثر تماسكاً وأكثر جدارة بالقراءة.

وأخيراً لا بد لي من الإشارة إلى أثر أرليتا نايت Arletta Knight التي تعمل أيضاً في حقل تطوير التعليم، وقدمت لي معلومات رائعة من خلال المسودات المتعددة لهذا الكتاب. حيث قدمت لي التشجيع المعنوي المتواصل كما أسهمت بمقترحات عظيمة القيمة لإجراء تغييرات جعلت الكتاب أكثر فائدة للآخرين. لقد أسعفني الحظ كثيراً حين وجدت امرأة من هذا الصنف في حياتي ـ ولأن تكون هذه المرأة زوجتي!

المؤلف

يشغل ل. دي فينك L. Dee Fink منصب مدير برنامج تطوير التعليم، وهو أستاذ مشارك لمادة الجغرافيا بجامعة أوكلاهما. حصل على شهادة الدكتوراة والماجستير من جامعة شيكاغو، وكان قد نال شهادة البكالوريوس من جامعة Capital University. في بداية عمله بجامعة أوكلاهوما بعد تخرجه من المرحلة الجامعية الأولى عام 1976 درّس مقررات في مادة الجغرافيا وفي التعليم العالي. في عام 1979 اقترح إنشاء برنامج تطوير التعليم ثم أطلق هذا البرنامج وصار مديراً له منذ ذلك الحين. وعندما كان في جامعة أوكلاهوما كان أيضاً عضواً في الهيئة التدريسية لخمسة عشر عاماً درّس خلالها في كلية دراسات الفنون الحرة وهو برنامج دراسات لفروع متعددة من العلوم والمعرفة خاص بتعليم الكبار والطلبة غير المقيمين، كما كان في الوقت نفسه أول مدير لبرنامج «المدخل إلى التعليم الجامعي من جامعة أوكلاهوما Oklahoma's Gateway to College Education الهادف إلى توعية طلبة السنة الجامعية الأولى بالدراسة في الجامعة».

عمل لما يزيد عن عشرين عاماً استشارياً في التعليم، فكانت خبرته هذه أساساً للأفكار التي يطرحها في هذا الكتاب. كان يلاحظ ويراقب التعليم داخل قاعات المحاضرات للمئات من الأساتذة، وكان يتشاور معهم بشكل فردي بغية تعزيز فاعلية تدريس المقررات وحل المشكلات التعليمية. وتولى قيادة وإدارة ورشات العمل والمناقشات مع أساتذة الجامعات، فوفرت له هذه الخبرة الاستشارية إضافة لخبرته الخاصة في التعليم إحساساً ودوداً لمواقف الأساتذة الجامعيين وأفكارهم ومشاعرهم وأفعالهم.

لقد امتدت أنشطته على المستويين الوطني والدولي مستخدماً خبرته في تطوير الهيئات التدريسية. فكان أول من اقترح إنشاء اتحاد إقليمي تحت عنوان Great Plains لمطوري الهيئات العلمية في الجامعات عام 1981، كما كان عضواً في شبكة

التطوير المهني والمؤسسي Professional and Organizational Development (POD) Network في التعليم العالي لما يزيد عن عشرين عاماً، إضافة إلى كونه عضواً في اللجنة التنفيذية لهذه الشبكة، ومديراً مشاركاً لورشة عمل حول «بدء عملية تطوير أساتذة الجامعات» التي تقام على هامش المؤتمر السنوي لشبكة التطوير المهني والمؤسسي منذ مطلع عقد التسعينيات في القرن العشرين. إلى جانب ذلك عمل عضواً في هيئات تحرير مجلة ASHE — ERIC Higher Education Reports ومجلة Journal of Staff, Program and Organization Development. وفي عام 2002 تم انتخابه رئيساً لشبكة التطوير المهني والمؤسسي التي تعد الأولى بين المؤسسات التي تعنى بتطوير الأساتذة الجامعيين في أمريكا الشمالية.

في عام 1989 حاز على جائزة «Stand and Deliver» Jaime Escalante من الرابطة الأمريكية للتعليم العالي AAHE وفي عام 1992 حاز على جائزة عضو هيئة التدريس المتميز Outstanding Faculty Award من كلية دراسات الفنون الحرة التابعة لجامعة أوكلاهوما.

من أوائل منشوراته، دراسة تجريبية شملت نحو مائة من المدرسين المبتدئين في التعليم الجامعي وقد نشرت في الكتاب الصادر في عام 1984 عن الناشر جوسي باس Jossey-Bass بعنوان New Directions for Teaching and Learning No. 17. ومنذ ذلك الحين نشر اتجاهات جديدة نتعلم والتعلم رقم 17 العديد من المقالات وفصول الكتب حول التعليم الجامعي وتقييم التعليم في الجامعات والأساتذة الجدد وبرامج تطوير التعليم. وشارك في إعداد كتاب التعليم المرتكز على الفريق Team-Based Learning الصادر عن دار النشر Praeger, 2002 ، موقعه الالكتروني **http://www.ou.edu/idp/dfink.html**.